فنون&ثقافة

أنا وريثة ثقافة وحضارة ضاربة في عمق التاريخ. فمراكش لها من الغنى والتنوع الثقافي ما يدعو الزائر إلى ربط علاقة عشق تلقائية معها

الشاعرة والروائية والفنانة العالمية _المغربية سافو لـ«الخبر»:

غنيتُ في القدس ضد الحرب الظالمة في فلسطين..

أغنت الأدب الشعري بثلاثة دواوين : «دفتر الأسابيع الـ14» و«قبل أن أرى» و«حرب الكلمات».. وتحتفظ لها رفوف الخزائن والمكتبات العالمية بتسع روايات أهمها «عنف ناعم» و«يفضلون القمر» و«كذبة» ..أثثت لها فضاء غنائيا نسجت فيه بمسحة شرقية ـ غربية أكثر من ألبوم، قبل أن تعزف بأوتار صوتها القوي مآسي غزة وهموم القدس.. التقت الرئيس الراحل ياسر عرفات غير ما مرة، وأهدته قصيدة عن فلسطين.. حرصت على تشكيل رؤيتها الفنية على قاعدة العالمية، فكتبت وغنت في آسيا وأوربا وأمريكا وإفريقيا بخمس لغات، العربية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية والعبرية، من أجل السلام والمساواة والتعايش..إنها الشاعرة والروائية والمطربة المغربية سافو التي ازدادت وترعرعت من أسرة يهودية بمراكش قبل أن تشد الرحال إلى باريس لاستكمال دراستها العليا، ومن هناك إلى نيويورك كمراسلة صحفية لمجلة «أكتويل» الفرنسية، ثم لندن وبعدها المكسيك في رحلة استغرقت سنتين.

في جلسة شاي بأحد أعرق المقاهي الباريسية كان لنا هذا الحوار:

حاورها: أحمد البشير (باريس)

● لكل فنان بداية، ترسم معالم الطريق، فكيف كانت بدايتك؟

بدأت الرحلة الفنية بترديد بعض الأغاني في البيت لكبار الفنانين العالميين. وكان والدي أيضا ميالا جدا إلى الغناء والطرب فضلا عن إلمامه بالتراث الشرقي والأندلسي على الخصوص. وطالما حدثني عن دفء الصوت التي كانت جدتي تتمتع به. وقد كان على الرغم من أصوله اليهودية، واسع الدراية بالأدبين العربي والفرنسي إلى جانب التراث العبري. وقد علمني وأنا في إرهاصاتي الفنية الأولى كيف أتفاعل مع الكلمة المنغومة (الشعر) والكتابة السردية (الرواية)، وكانت الحصيلة ثلاثة دواوين شعرية وسبع روايات بالإضافة إلى عشرات الألبومات المستلهمة في جزء كبير منها من نشأتي المغربية.

● تقصدين أن بصمة مراكش مرسومة في بعض أعمالك؟

يمكنني القول إن مراكش تشكل مرحلة الصبا في رحلتي الفنية حتى وإن لم أكن قد مارست الغناء بين جدرانها..أعتبرها محطتي الرئيسية لأن فيها سأتلقى الشحنة الفنية الأولى التي ستمكنني فيما بعد من إثبات الذات إن صح التعبير. وتأتي بعدها مرحلة الهجرة إلى فرنسا.

● ماذا يعني بالنسبة إليك أن تكون مراكش هي موطن النشأة والأصل؟

هذا يعني أنني وريثة ثقافة وحضارة ضاربة في عمق التاريخ. فالمدينة لها من الغنى والتنوع الثقافي ما يدعو الزائر إلى ربط علاقة عشق تلقائية معها..

● ألا ترين أن هذا المخزون الثقافي المراكشي بصدد فقدان شيء من بريقه بحكم منطق التطور وزحف المعاصرة؟

ولدت بمراكش عام 1950 حيث لم يكن بها آنذاك سوى فندقان أو ثلاثة وبعض المتاجر المتناثرة هنا وهناك. ودعني أقول إنه بالرغم من أن المدينة تمددت في الجغرافيا المحيطة بها بشكل متسارع، فهي ما تزال مترابطة وماسكة بتقاليدها العريقة وأسوارها وألوانها الساحرة. ويكفي إلقاء نظرة على بعض معالم المدينة، لنتبين أن الموروث العمراني المراكشي ليس مهددا بالشكل الذي قد يدعو إلى القلق. ثم إن هذه العادات والطقوس المتأصلة في قلب المدينة، من تقاليد الضيافة واللباس والطبخ والتلاحم العائلي، لا تبدو مستعدة للذوبان بسهولة في وتيرة العصرنة المتسارعة. ولا أخفيك أيضا أنني مندهشة بالطفرة الثقافية المراكشية والمغربية بشكل عام في مجالات إبداعية مختلفة وخاصة الكتابة والفنون التشكيلية والموسيقى.

● وهل انعكست الجاذبية التي تمارسها عليك مراكش في أعمالك؟

دعني أقول أولا إنني لست زائرة أو سائحة حتى تمارس مراكش جاذبيتها علي. فأنا بنت المدينة، ولدت فيها وترعرعت في أحضانها. وحتى التربية التي تلقيتها كانت من صميم المبادئ والأصول المغربية. أما عن انعكاس ذلك على أعمالي الإبداعية، فيمكنني القول إن كل نتاجاتي، شعرية كانت أم روائية وحتى غنائية، تحمل بشكل من الأشكال بصمة مغربية.

● هل أحسست في فترة المراهقة بالحاجة لاحتراف الغناء؟

لم أكن أفكر في ذلك بسبب انشغالي بالدراسة، غير أن بعض أوقاتي كانت مخصصة للطرب حيث نسجت بشكل تلقائي علاقة داخلية قوية مع بعض كبار الفنانين العالميين. وكنت ميالة منذ البداية إلى الدفاع، عبر الموسيقى والشعر، عن قضايا اجتماعية وإنسانية كبرى. غير أنني لم أكن أتوقع لحظة أن أرحل إلى باريس لاقتحام فضاء الغناء بين فناءات المدينة ومجالاتها الحيوية المختلفة.

● هل لك أن تحدثينا باختصار عن هذه الرحلة؟

رحلت في البداية إلى مدينة ليون لاستكمال الدراسة في شعبة الأدب الفرنسي، ثم إلى سويسرا في السنة الموالية لنفس الغرض، قبل أن أحط الرحال بباريس حيث تلقيت مع بداية دراستي للفنون، تعليما خاصا من المخرج المسرحي الفرنسي المعروف أنطوان فيتز قبل أن أدشن لمشواري الفني بعروض غنائية وموسيقية صغيرة أتجول بها ومعي غيتارتي بين أندية وكباريهات باريس الشهيرة إلى أن تعرفت على الموسيقي الفرنسي الكبير هيرفي كريستياني. وقد شكلت علاقتي الفنية به مرحلة مميزة في حياتي الفنية.

● وهل كان يستهويك الغناء في المقاهي والكباريهات؟

لست ضد الكباريهات كما ألفها المثقفون والفنانون الفرنسيون ببعدها الفني وحميميتها الشاعرية. فمثل هذه الأماكن كانت قبلة لكبار الموسيقيين من أمثال جاك بريل، وجورج براسنس، وإيديث بياف وغيرهم.. وهي تختلف عن الحانة أو المرقص الليلي بمفهومه الرخيص والذي تحول عن رسالته الفنية وأصبح له بعد آخر يتسم بالضجيج وببعض السلوكات الخارجة عن اللياقة.

● ولماذ رحلت سريعا من باريس قبل أن تنتجي لك ماركة غناء محددة ثم تنطلقين لتسويقها في العالم؟

كنت دائمة السعي إلى التميز والتألق، وكنت على اقتناع بأن الفضاء الثقافي والفني الشاسع لمدينة نيويورك سيمنحني إمكانيات واسعة وفرصة الاقتراب من تقنيات متطورة وأداء مختلف.. وهناك تعلمت بالفعل كيفية الاهتمام الدقيق والكبير بأعماق الأشياء وليس بالشهرة الزائفة التي بسهولة يمكن اكتسابها عن طريق إعلام موظف بشكل جيد.

● وكيف كانت الرحلة إلى نيويورك؟

ذهبت إلى هناك كمراسلة صحفية لمجلة «أكتويل» (الوقت الراهن) الفرنسية. وقضيت بها سنتان لم أقطع خلالهما علاقتي بالموسيقى حيث كانت لي حفلات خاصة وأخرى ضمن مجموعات كانت تقدم أغانيها في ميترو أنفاق نيويورك. واخترت بدل العودة إلى باريس أن أحط الرحال بلندن حيث سجلت في أوائل الثمانينات أسطوانتي الثانية التي تزامنت مع نشر روايتي الأولى «عنف ناعم»(1982). ثم قصدت المكسيك في رحلة استغرقت سنتين، عدت على إثرهما بألبومين جديدين «توحش» و«رغبة العبور»، وبرواية «كذبة» التي حققت نجاحا كبيرا من حيث المبيعات.

● ما السر في تأثر ميولك الفنية منذ منتصف الثمانينيات بالغناء العربي؟

قمت عام 1985 بخطوة مهمة في البحث عن جذوري الإنسانية والثقافية المغربية من خلال الاهتمام بالغناء العربي ممثلا بأغنية أم كلثوم «الأطلال» التي قدمتها لأول مرة في فرنسا عام 1986. ثم إن حنيني لموطني الأصلي المغرب، قادني إلى المكوث به طويلا سنة 1999 حيث بحثت في طرب «الشيخات» وانعكس هذا الموروث الغنائي في عملي. ودعني أقول إن اقترابي من القضايا الثقافية العربية والمغربية قادني لاحقا إلى الوقوف إلى جانب القضايا السياسية العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين.

● لقد لمسنا بالفعل أن معظم أعمالك سواء الشعرية أو الغنائية تكسوها مسحة نضالية ضد الظلم والقهر...

لا أخفيك أن ضميري السياسي شب متأخرا بعض الشيء. فقد عشت طفولتي ومراهقتي بمراكش خالية البال إلا من الموسيقى والشعر والتجوال في دروب المدينة وكنوزها. ولم أتمكن من فهم أسباب هذا الصراع العبثي بين الفلسطينيين والإسرائيليين إلا عند رحيلي من المغرب حيث قرأت الكثير عن هذه الحرب الظالمة في فلسطين. وقد انعكس ذلك في الكثير من أعمالي التي دعوت فيها إلى وقف الاقتتال وتوفير أسباب العيش الآمن للشعبين من خلال إقرار الحقوق الثابتة للفلسطينيين. إنه حلمي الكبير وقد ناضلت ولازلت من أجله. لقد غنيت في القدس وغنيت في غزة من أجل السلام وضد الحرب الظالمة في فلسطين.

● وتحت أية يافطة تضعين نضالك من أجل السلام في فلسطين؟

نضالي من أجل فلسطين أخوضه تحت يافطة الشعر والموسيقى.. تربطني علاقات صداقة مع الكثير من الغزاويين. وقد التقيت الرئيس الراحل ياسر عرفات غير ما مرة، وأتذكر أنه سعد كثيرا بالقصيدة التي قرأتها أمامه وأهديتها إياه أثناء زيارة رسمية قام بها عام 1989 لمعهد العالم العربي بباريس. وقد أنجزت أيضا كتابا جماعيا من مئات الصفحات «شرق أوسط قريب» بمشاركة كتاب إسرائيليين وفلسطينيين ومسيحيين ومغاربة من أمثال ماحي بينين وفؤاد العروي وغيرهم. مئة شخصية أدبية ساهمت في هذا الكتاب من بينها محمود درويش وأنسي الحاج وآخرين. وقد سلمت للرئيس عرفات نسخة من الكتاب في لقاء أعرب فيه عن امتنانه الكبير لما أقوم به مع نخبة من رجال الفكر العرب والإسرائيليين لفائدة السلام في الشرق الأوسط.

● وهل تؤمنين بحل قريب لهذا النزاع القائم منذ 60 سنة؟

. لولا فسحة الأمل لما وجدتني أكتب وأغني من أجل وقف هذه الحرب الظالمة. معظم الناس سئموا الوضع ويريدون السلام بأي ثمن، وهناك للأسف متطرفون من الجانبين، وهم قلة قلية ولكنها مسموعة أكثر لأن الأغلبية تفضل الصمت وهي منشغلة بالعمل من دون ضجيج.

●ماذا عن مسارك الأدبي؟

تحتفظ لي رفوف الخزائن بثلاثة دواوين شعرية : «دفتر الأسابيع الـ14» (2004) و«قبل أن أرى» (2005) و«حرب الكلمات» (2009)، وبتسع روايات أهمها «عنف ناعم»(1982) و«تحت القبة» (1985) و«يفضلون القمر» (1987) و«كذبة»(1996) و«المندبة كبيرة والميت فأر» (1999) وغيرها..وأيضا عشرات الأعمال الموسيقة التي كنت فيها الكاتبة والملحنة والمغنية وقدمتها في مختلف بلدان المعمور (آسيا وأوربا وأمريكا وإفريقيا). وفي كل هذه الأعمال يلمس المتلقي هذا النضال القوي من أجل حقوق الإنسان ومن أجل السلام والمساواة بين الناس من كل الأجناس.

● ومع ذلك فإن اسم سافو غير متداول بما فيه الكفاية في المغرب..

اسمي غير معروف بالفعل في الأوساط الجماهيرية، لكنه حاضر بما يكفي في أوساط النخب الفنية المغربية. وأتمنى أن يستأنس جمهوري المغربي مع اسم سافو التي تحاول أن تكون أعمالها الفنية مستنبتة قدر الإمكان من بيئتها المغربية مع التأكيد ضمن هذه الأعمال على أن الإنسان المغربي هو مالك لحضارة كبيرة وعريقة تتجلى في عطائه الفني الثري والمتنوع.